الفصل الثاني

علم العقيدة بين المؤيدين والمعارضين

المبحث الأول : موقف المؤيدين

المبحث الثاني : موقف المعارضين

obeikandi.com

obeikandl.com

المبحث الأول

موقف المؤيدين

يعد علم العقيدة كغيره من العلوم الإسلامية له أنصاره و له خصومه ، ولا يكاد يخلو علم من العلوم من خصوم و أنصار ، ولقد هوجم علم العقيدة و علماؤه كما هوجم الفقه و الفقهاء ، و التصوف و الصوفية ، و الفلسفة و الفلاسفة ... الخ.

و غير خفي أن بعض هذه العلوم قد تؤخذ عليها و على بعض علمائها بعض المآخذ باعتبارها علوم كسبية ، و علماؤها بشر يصيبون و يخطئون ، ولكن أن تهاجم هذه العلوم جملة و تفصيلا و يطعن عليها كلية فهذا موقف غير سديد، و بعيد كل البعد عن المنهج العلمي .

وفي الصفحات التالية – نعرض بعون الله تعالى و توفيقه – بشيء من الإيجاز للموقف من علم العقيدة ، فأقول و بالله – تعالى – التوفيق .

من المعلوم أن الغاية من وجود علم العقيدة – كما أوضحنا في مستهل هذه الدراسة – هي بيان الأصول الإيمانية للدين الإسلامي، و الدفاع عن عقائده، و إقامة الحجه على المنكرين له و المعترضين على هذا الدين بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية .

وقد قام الأوائل من علماء العقيدة في هذا الجانب بجهود لا تخفى على أحد ، فقد قاموا بإثبات العقائد الإيمانية بالأدلة النقلية و العقلية ، وردوا سهام الملاحدة و الزنادقة و المخالفين لهذا الدين ، كالثنوية ، و المجوس ، و اليهود ، و النصارى و غيرهم، وكان في طليعة هولاء– في القرون الأولى – علماء المعتزلة الذين أبلوا بلاء حسناً في إبطال مذاهب المخالفين .

كذلك كان القاضي أبي بكر الباقلاني وهو من أعلام المذهب الأشعري – (ت 304 هـ) باع طويل، وجهد لا ينكر في نقض مذاهب المخالفين، وذلك في كتابه المشهور المسمى " التمهيد في الرد على الملاحدة المعطلة . . . " فقد رد فيه على فرقة

البراهمة والنصارى والقائلين بفعل الطبائع وغيرهم[1]،وقل مثل هذا في غيرهما كالغزالي ، والرازي ، وابن تيمية ... الخ.

و مع هذه المهام الجليلة لهذا العلم إلا أنه وعبر عصوره المتختلفة كان محلا للطعن وموضعا للنقد من قبل بعض خصومه ؛ والذين ينظرون إليه على أنه بدعة من أكبر البدع ؛ ولذا نراهم قد شددوا في النكير على المشتغلين به ؛ لأنهم كانوا يرون أن ما جاز البحث في الأحكام الفقهية إنما هو ابتداع ؛ لأن الإيمان – عندهم – هو الطاعة ؛ لا كما يذهب إليه المرجئة و المعتزلة من أنه هو العلم أو المعرفة[2] .

أولاً : موقف المؤيدين :

لن نعرض هنا لموقف جميع العلماء المؤيدين لعلم العقيدة ؛ لأن المقام لا يتسع لهذا الإسهاب ؛ فضلاً عن أن الغرض هنا هو بيان لموقف بعض الذين ناصروا هذا العلم و دفعوا عنه .

ومن ثم فإننا سنكتفي بعرض مواقف محددة لبعض الأئمة وذلك على النحو التالي :

أ- الحسن البصري

من أوائل العلماء الذين خاضوا في علم العقيدة واشتغلوا ببعض مسائله [3] , ولعل مما يؤكد صدق هذه المقولة ما ذكره ابن خلكان في ترجمته لشخصية الحسن البصري ؛ فقد جاء في هذه الترجمة قوله عن هذا الإمام : إنه تابعي جليل ؛ اشتهر بالصلاح والعلم والفصاحة ومتانة الخلق ؛ وعرف بالفقه والقصص والكلام والتصوف وتعده المعتزلة رأسهم ؛ لأنه تكلم في القدر ؛ وقال بحرية الإرادة ؛ وكذلك يعده المتصوفة إمامهم[4] .

---

(1) ينظر تعليق الدكتور أبو ريده على كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام لديبور ص 197 .

(2)تاريخ الفلسفة في الإسلام دي بور ، نقله إلى العربية وعلق عليه د. محمد أبوريدة ص 77 .الهيئة المصرية العامة للكتاب ، متبة الأسرة صيف 2010 م .

(3) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : 1 / 248 .

(4) وفيات الأعيان : 1 / 160 نقلاً عن كتاب ابن سينا بين الدين والفلسفة للدكتور / حموده غرابة ص 22 .

obeikandl.com

وقد بين الحسن البصري سبب اشتغاله بعلم الكلام في رسالة أرسلها إلى عبد الملك بن مروان و وتتعلق هذه الرسالة أساساً بموضوع القضاء والقدر وأفعال العباد وقد جاء فيها قوله : " لم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه - يقصد القدر - ؛ لأنهم كانوا على أمر واحد و وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من النكرة له فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه أحدث الله – تعالى – للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات"[1].

ويتضح من هذا النص أن الحسن البصري يرى جواز الاشتغال بعلم العقيدة إذا كان القصد بيان الحق في مسائل الدين والرد على الملاحدة وتفنيد شبههم و إبطال أدلتهم .

ب- جعفر الصادق :

وهو كذلك من العلماء الذين اشتغلوا بهذا العلم ودافعوا عنه ، إذ يروى عنه أنه كان يحث أصحابه على الاشتغال بعلم العقيدة إذا كان بقصد الرد على المبتدعة ونقض شبهاتهم .

فقد فيما يروى عن أبي جعفر الصادق أنه قال ليونس بن يعقوب : وددت أنك يا يونس تحسن الكلام فقال له يونس : جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام فقال الصادق : إنما قلت : ويل لهم إذا تركوا قولي وصاروا إلى خلافه و دعا حمران بن أعين ومحمد بن الطيار وهشام بن سالم فتكلموا بحضرته وتكلم هشام – يعني هشام بن الحكم – من بعدهم فأثنى الصادق عليه ومدحه وقال له: مثلك من يكلم الناس ، و قد ورد أنه شجع هشام بن الحكم على الكلام"[2].

---

(1)ينظر : رسائل العدل و التوحيد للقاضي عبد الجبار بتحقيق د / محمد عماره ص 118 ط دار الشروق بدون .

(2)تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد بتعليق الشيخ معالي الشيخ هبة الدين الشهرستاني ص 26- 27 ط 2 – 1371هـ .

obeikandi.com

ويفهم من هذه الرواية أن جعفر بن محمد الصادق كان يستحسن مزاولة الكلام لنصرة الدين، وأن نهيه عن الكلام إنما ينصب على كلام المبتدعة المخالف للكتاب و السنة .

ومما يؤكد على أنه جوز الاشتغال بهذا العلم ، أنه ألف كتباً فيه، منها كتاب الرد على القدرية، وكتاب الرد على الخوارج، ورسالة الرد على الغلاة من الروافض[1] .

ج- أبو حنيفة النعمان

من بين المؤيدين للاشتغال بهذا العلم الإمام أبو حنيفه النعمان ذلك أن الناظر في مؤلفاته يجد أن بعضها يغلب عليه الطابع الكلامي ، مثل كتابه الفقه الأكبر ، و الوصية ، و العالم و المتعلم ، وفي هذا الكتاب الأخير يوضح حجته في تجويز الاشتغال بهذا العلم فيقول : " قال المتعلم : رأيت أقواماً يقولون : لا تدخلن هذه المداخل، فإن الصحابة لم يدخلوا في شيء من هذه الأمور ، وقد يسعك ما وسعهم قال العالم : " قل لهم : بل يسعنى ما وسعهم لو كنت بمنزلتهم، وليس بحضرتي مثل هذا الذي كان بحضرتهم ...، وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا، فلا يسعنا ألا نعلم من المخطئ منا والمصيب، ... فمثل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم، فلا يتكلفون السلاح . . . مع أن الرجل إذا كف لسانه عن الكلام فيما اختلف فيه الناس، وقد سمع ذلك، لم يطق أن يكف قلبه " .

ويمضي أبو حنيفة، فيبين أن المرء إذا كف نفسه عن معرفة وجه الحق، فيما اختلف الناس فيه، ولم يبال أن يعرف المخطئ والمصيب في حومة هذا الجدال الدائر – عرَّض نفسه لأمور شنيعة : منها التردي في حضيض الجهالة، ومنها نزول الشبهة عليه كما نزلت بغيره، ولا يدري كيف المخرج منها، ومنها أنه لا يدري من يحب في الله ومن

(1) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د. سامي النشار 1 / 245 ، ط دار المعارف بالقاهرة ط 9 .

يبغض في الله، من هؤلاء المختلفين المختصمين، وكل هذه أمور خطيرة ينبغي للمؤمن أن يتوقاها ويصون نفسه منها[1].

بل يذهب الإمام أبو حنيفة إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يعلن أن الإنسان إذا أشكل عليه شيء من دقائق علم التوحيد أو الكلام وجب عليه أن يعتقد – في الحال – ما هو الصواب عند الله – تعالى – إلى أن يجد عالماً بدقائق علم التوحيد فيسأله عما خفي عليه، ولا يسعه تأخير الطلب، ولا يعذر بالتوقف وترك السؤال، بل يكفر إن وقف ولم يسأل.

ويفسر البياضي هذا بقوله – أنه إذا جهل الإنسان أمرا هو من الضروريات الدينية فلا ينبغي له التوقف فيها كما يتوقف في غيرها[2].

تلك هي أهم آراء بعض العلماء الذين جوزوا الاشتغال بعلم الكلام، ولم يجدوا حرجاً من تناوله، بل امتدحوا أربابه وأثنوا على ما بذلوه من جهد في سبيل الدفاع عن العقيدة، وواضح أنهم كانوا ينطلقون – في حكمهم هذا – من نقطة واحدة، وهي إقامة الأدلة اليقينية على العقائد الإيمانية و الرد على المبتدعة و المنحرفين، ودفع شبه الملاحدة و الزنادقة.

ومن هذا نعلم أن دراسة علم العقيدة من الأهمية بمكان بل هي مطلوبة ولكن بشرط أن تكون دراسة بناءة تأخذ على عاتقها توضيح العقيدة الإسلامية الصحيحة وتبين بطلان ما عداها.

---

(1) رسالة العالم والمتعلم :برواية أبي مقاتل عن أبي حنيفه ص 8 – 12 .تحقيق الشيخ زاهد الكوثري 1368 هـ ص 86 – 12 .

(2)إشارات المرام ص البياضي : 105 – 106 ، وينظر : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام ص 80 ، 81 .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثاني

موقف المعارضين

المعارضون لعلم العقيدة :

هذا هو الإتجاه الثاني و الذي يرى حرمة الاشتغال بهذا العلم ، و يشدد النكير على المشتغلين به ، وهذا الاتجاه يمثله أهل الفقه و أهل الحديث ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه ما يلي :

1- **الإمام مالك :**

فقد ثبت بأنه كان يكره الخوض في مسائل علم العقيدة ، و مما يدل على ذلك ما أخرجه الهروي عن طريق عبد الرحمن بن مهدي إذ يقول : دخلت على مالك و عنده رجل يسأله فقال له : لعلك من أصحاب عمرو بين عبيد لعن الله عمرا فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام ، و لو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة و التابعون كما تكلموا في الأحكام و الشرائع[1] .

كما روي عنه- رضي الله عنه – أنه كان يحذر الناس من الجدل في الدين ويصف المتكلمين بالابتداع فقد ورد عنه قوله : " إياكم والبدع قيل يا أبا عبدالله : وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان[2] .

2- **الإمام الشافعي :** هو أحد المشتغلين به و بالرغم من اشتغاله بعلم العقيدة زمنا فقد رويت عنه أقوال كثيرة في ذمة ، وذم المشتغلين به ، إذ يروى عنه قوله أثناء موته : " لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد"[3] .

---

(1) صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام للسيوطي ، تعليق علي سامي النشار ص 32- 33 ط دار الكتب العلمية بيروت .

(2) المصدر نفسه : ص 56 ، 57 .

(3) ينظر : مناقب الإمام الشافعي ، للإمام الرازي ص 100 ، تحقيق د. احمد السقا نشر مكتبة الكليات الأزهرية ط1- 1986 م1 علم الكلام ومدارسه د/ فيصل بدير عون ص : 51.ط 2.

obeikandi.com

كما روي عنه قوله : " رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضا ، و رأيت أهل الحديث يخطىء بعضهم بعضا ، و التخطئة أهون من الكفر[1]"

2 - الإمام أحمد بن حنبل :

إمام أهل السنة و الجماعة ، و أحد أعلام هذا الإتجاه ، و قد تعددت الأدلة على كره للكلام في مسائل العقيدة ونهيه عن الخوض فيها ، فقد ورد عنه قوله : " علماء الكلام زنادقة" [2] .

كما ورد عنه قوله : " لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا نكاد نرى أحدا نظر في الكلام إلا و في قلبه دَغَل " [3].

هذه بعض الأقوال التي وردت عن أئمة الفقه و الحديث ، و التي توضح موقفهم من الاشتغال بهذا العلم ، وهي كما نرى انصبت حول علم العقيدة الذي تدور موضوعاته حول الجدل في الذات الإلهية ، و ما يتصل بها من مسائل أو يرتبط بها من قضايا ، لذات الجدل و المراء ، لا بقصد إقامة الأدلة على العقائد الإيمانية و الرد على المبتدعة و المنحرفين .

تعقيب :

بعد هذا العرض للموقفين السابقين يصح القول إن كلاً من المؤيدين والمعارضين قد عبروا عن هذا العلم وموقفهم منه طبقا لنظرتهم إليه ، وحكمهم عليه و على المشتغلين به ، فأيده فريق وعارضه آخر .

إلا أن هذا لا يعنى أن فريقا منهم انفرد بهذا العلم ، واختص بنموه وتطويره دون الآخر ، فقد اشتركا سويا ، ولو – بقدر ما – في نشأة هذا العلم وتنمية موضوعاته ، و عرض قضاياه ، و شرح مسائله ، و تفصيل مشكلاته .

---

(1) ينظر :المصدر نفسه ص 100 – 101 .
(2) صون المنطق : ص 128 .
(3) التفكير الفلسفي في الإسلام د / عبد الحليم محمود ص 94 ط دار المعارف بالقاهرة ط 2 .

obeikandl.com

فالمؤيدين له دفعوا به إلى الإمام بحكم إجازتهم الاشتغال به فضلاً عن إسهامهم في تطوير مباحثه ، و إظهار مسائله ، وتحديد أهدافه ، و بيان مقاصده ومراميه.

أما المعارضون له فمنهم من اشتغلوا به – قبل أن يحكموا بالمنع – فكان اشتغالهم به مشاركة منهم في نموه و إثراء موضوعاته .

ومنهم من كان يضطر –مع منعه – إلى الإدلاء بالرأي الموجز في بعض ما يثار من مسائل وهذا إسهام على أية حال .

بل إن المانعين كان لهم في تسويغ موقفهم وتقرير معارضتهم منهج يمكن اتباعه في بعض المسائل المطروحة كمنهج التوقف الذي أعلنه الإمام مالك – رضي الله عنه – في الصفات الخبرية والذي يمثل موقفاً وسطاً بين التعطيل والتمثيل فهو لا ينفي الصفات كما قال المعطلة ولا يمثلها بصفات المخلوقين كما تقول المشبهة وهذا إسهام له مغزاه أيضاً باعتبار أن هذا المنهج أصبح يمثل اتجاهاً خاصاً تبناه فيما بعد أنصار المذهب السلفي ودافعوا عنه بحماس شديد[1] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذا العلم و إن طعن عليه من بعض الأئمة الأعلام فإنه مما ينبغي التنبيه إليه أن هؤلاء الأئمة الذين قدحوا في علم الكلام وحذروا من الخوض في مسائله وشددوا في الإنكار على أهله ووسموهم بالضلال إنما كانوا يقصدون بانتقاداتهم أناسا معنيين أو جماعة مخصوصين أولعوا بالبحث والتنقير في مسائل شائكة من مسائل العقيدة لم يكلفوا النظر فيها مثل البحث في ذات الله – تعالى – وصفاته والعلاقة بين الذات والصفات ومسألة القدر وتأويل المتشابه ولكنهم مع ذلك حاولوا أن يقتحموا غمار هذه المشكلات وأن يحكموا فيها أنظارهم وعقولهم وتوغلوا في مضايق حرجه لا طاقة للعقل بالخوض فيها ودفعهم حب الغلبة والاستعلاء على الخصم إلى التنابر بالكفر أحياناً متجاوزين بذلك منهج الصحابة –

(1)عوامل وأهداف نشأة علم الكلام د / يحيى فرغل : ص 85 .

openkandil.com

رضوان الله عليهم – الذين كانوا على منهاج واحد في أصول الدين ولم يؤثر عنهم أنهم خاضوا في مسائل على الكلام على نحو ما فعل المبتدعة والعقلانيون من المتكلمين .

هؤلاء هم المتكلمون الذين ذمهم أئمة السلف حقاً، وهذا هو نوع الكلام الذي وجه الأئمة إليه انتقاداتهم العنيفة، وما كان لهؤلاء الأئمة أن يذموا الكلام الموافق للكتاب والسنة، الموضح لأصول العقيدة عند ظهور الفتن وتفتشى البدع، المنزه عن المماراة والهوى، الرامي إلى دحض شبهات المعاندين وتفنيد تخرصات المبطلين .

ويؤكد ذلك ما يذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد أن الإمام ابن حنبل – رضي الله عنه – حيث يقول ما نصه : "وقد رد على الجهمية وغيرهم بالأدلة السمعية والعقلية، وذكر من كلامهم وحججهم ما لم يذكره، بل استوفى حكاية مذهبهم وحججهم أتم استيفاء، ثم أبطل ذلك بالشرع والعقل"[1] .

ويضيف إلى هذا أن الإمام أحمد كما ثبت عنه أنه لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين في الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه.

ولكن الإمام أحمد ذم من الكلام البدعي ما ذمه سائر الأمة، وهو الكلام المخالف للكتاب والسنة، والكلام في الله ودينه بغيره علم .

فالإمام أحمد كان أكثر كلاماً في أصول الدين بالأدلة القطعية من سائر الأئمة ؛ لأنه ابتلى بمخالفي السنة فاحتاج إلى ذلك .

ثم إن الموجود في كلامه من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق السنة والموجود في كلامه، من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق السنة، لم يوجد مثله في كلام سائر الأئمة، ولكن قياس التمثيل في حق الله تعالى لم يسلكه أحمد، فلم يسلك فيه

(1) درء تعارض العقل والنقل . ابن تيمية 7 / 149 .

إلا قياس الأولى، و هو الذي جاء به الكتاب و السنة ... ، و المقصود أن الإمام أحمد يستدل بالأدلة العقلية على المطالب الإلهية إذا كانت صحيحة، إنما يذم ما يخالف الكتاب والسنة، أو الكلام بلا علم، والكلام المبتدع في الدين، كقوله في رسالته إلى المتوكل: "لا أحب الكلام في هذا إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو الصحابة أو التابعين ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود" .

وهو لا يكره – إذا عرف معاني الكتاب والسنة – أن يعبر عنها بعبارات أخرى إذا احتيج إلى ذلك، بل هو قد فعل ذلك ، بل يكره المعاني المبتدعة في هذا، أي فيما خاض الناس فيه – من الكلام في القرآن والرؤية والقدر والصفات – بما يوافق الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين[1] .

وهذا الذي ذكره ابن تيميه يعبر عنه أحد المفكرين المحدثين بقوله : وإن من التعسف والشطط أن ننكر لشهيد محنة خلق القرآن مذهبه الكلامي ! لقد ثبت ابن حنبل على موقفه من هذه القضية الكلامية ثباتاً لم يعرفه التاريخ من قبل ! وهو يعلن أن القرآن غير مخلوق ، و لو غير ابن حنبل لغيرت الأمة جمعاء ، إذ ثبت ثبات الأطواد و احتمل العذاب الأليم ، وقد امتلأت كتب التاريخ بأخبار محنته وهو يناقش المعتصم وأحمد بن أبي داود في خلق القرآن ! وينكر خلقه[2] .

هذا هو الموقف من علم العقيدة ، فريق يؤيد ، و آخر يعارض ، إلا أنه عند تحقيق المسألة نجد أن المعارض لا يعارض إلا نوعا من الكلام المذموم و المتروك عند أصحاب الإتجاه الأول ، ولا يلجئون إلى الخوض فيه وبحث مسائلة إلا تحت وطئة الحاجة ، ودافع الظروف ، وهذا مما يساعد على أهمية هذا العلم وضرورته وشدة الحاجة إليه ، و أن من أنكره لم ينكره بجملته و إنما أنكره لمسائل معينة وغايات خاصة ينفر منها كذلك أصحاب الإتجاه الأول .

---

(1) المصدر نفسه 7 / 153 : 156 .

(2) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : 1 / 252 .

obeikandl.com

فهذا الموقف من هذا العلم، هو - كما نعلم - نفس الموقف من أي علم من العلوم ، ومثل هذه المواقف لا تقلل أبدا من قيمة الدور الذي اضطلع به هذا العلم في مجال الدفاع عن العقيدة الإسلامية، والاحتفاظ لها بدور قيادة الحضارة الإنسانية، فلقد قدر لعلم العقيدة – على الرغم من بعض سلبياته – أن ينهض في طور نشأته بتبعة دينية ثقيلة، هي تبعة تقرير العقائد الإسلامية كما وردت في الكتاب والسنة، وإثباتها بالحجة والبرهان، والتصدي للدفاع عنها ضد حملات التشكيك التي شنها الأعداء على هذا الدين الحنيف، والاستجابة للنزعة العقلية الإنسانية التي حررها الإسلام من العبودية لغير الله تعالى، والأخذ بأصحابها إلى حظيرة الإيمان .

والآن علينا أن نجيب عن الأسئلة التالية : هل نحن في حاجة إلى علم الكلام في الوقت الحاضر ؟ وإذا كنا في حاجة إليه فما الأسس التي يجب أن يقوم عليها وما المهمات التي يجب عليه أن يضطلع بها ؟ والإجابة عن هذه الأسئلة هي موضوع الفصل التالي إن شاء الله -تعالى- .

obeikandl.com